ISSN: 2710-8759/ EISSN: 2992-1376 | 2025/07/15 544-533 ،(02) 06 | مجلة أطراس

الأنا الذي يحكي الآخر، بين الأدب الكولونيالي والأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية

The Self Narrating the Other: Between Colonial Literature and Algerian Literature Written in French

خالد عثمانين[1]

[1]جامعة يحيى فارس، المدية، الجزائر

تاريخ الاستلام : 2024/04/19 ؛ تاريخ القبول : 2025/01/28 ؛ تاريخ النشر : 2025/07/15

ملخص

لا يزال الماضي الاستعماري يلقي بظلاله على الحاضر الثقافي في الجزائر، إذ لا تزال العديد من قضايا الذاكرة عالقة وتحتاج إلى معالجة وتسوية. لقد مرّ التاريخ الاستعماري للجزائر بمراحل متعدّدة، نال بعضها حظًا وافرًا من الدراسة والاهتمام، بينما بقي بعضها الآخر في الهامش. يستهدف هذا المقال بالملاحظة والتحليل فترة وصفها عبد القادر جغلول بأنها "غير مدروسة بما يكفي(*sous-étudiée*) "، رغم أهميتها في فهم الأدب الجزائري المعاصر، والسياق الثقافي والاجتماعي الراهن في البلاد. وتُحدَّد هذه الفترة تقريبًا ما بين سنتي 1900 و1935، وقد أُطلق عليها، من منظور الأدب الفرنسي، مصطلح "الجزائرانية(*algérianisme*) "، بينما عُرفت من وجهة نظر الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية باسم "الاندماجية (*assimilationnisme*). "يطرح المقال الإشكالية التالية: كيف صوّرت أدبيات هذه المرحلة كلًا من المستعمِر والمستعمَر؟ ويُحاول الإجابة عنها من خلال عرض نماذج أدبية صادرة آنذاك ومقارنتها، سواء من قبل كتّاب فرنسيين مثل لوي برتران، روبير راندو، وألبير تروفيمو، أو من قبل كتّاب جزائريين مثل محمد ولد الشيخ، وعبد القادر حاج حمو، وشكري خوجة.

كلمات مفتاحية :الأدب الكولونيالي، الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية، الإيديولوجيا، الجزائرانية، الاندماج

Abstract:

The colonial past continues to affect Algeria's cultural present, and many issues related to memory remain unresolved. Algeria’s colonial history unfolded in multiple phases, some of which have received considerable scholarly attention, while others remain relatively neglected. This article focuses on one such underexplored period, described by Abdelkader Jaghloul as *sous-étudiée* (“insufficiently studied”), despite its significance for understanding both contemporary Algerian literature and the current cultural and social realities of Algeria. The period in question—roughly spanning from 1900 to 1935—has been identified by Jean Déjeux as “Algérianism” in the context of French literature, and as “assimilationism” from the perspective of Algerian literature written in French. This study poses the following question: How were the coloniser and the colonised represented in the literature of this period? It seeks to answer this by presenting and comparing literary works by French authors such as Louis Bertrand, Robert Randau, and Albert Truphémus, alongside Algerian writers such as Mohamed Ould Cheikh, Abdelkader Hadj Hammou, and Shukri Khoudja.

Keywords: Algerianism, assimilationism, colonial literature, French-language Algerian literature, ideology

البريد الإلكتروني: otmaninek@yahoo.fr[1]

DOI: https://doi.org/10.70091/Atras/vol06no02.35

Atras Journal/ 2025, published by the University of Saida, Dr. Moulay Tahar, Algeria
This is an Open Access Article under The CCBY License (http://creativecommons.org/licenses/by/4.0/)

مقدمة

تروم هذه الورقة البحثية العودة إلى فترة من تاريخ الجزائر الثقافي رأينا أنها لم تنل نصيبها من الدراسة، ورأينا أيضا أنها مهمة جدا في قراءتنا للأدب الجزائري المعاصر، خاصة ما كتب منه باللغة الفرنسية، بل وفي قراءتنا لوضع البلاد الثقافي والاجتماعي الراهن عموما، بل وأوضاع المستعمرات السابقة بصورة أعم. إنها الفترة التي يسميها جون ديجو – مؤرخ الأدب الجزائري والاستعماري – بفترة دعاة الإدماج أو الاندماج *les assimilationnistes* ويحددها بين سنتي 1900 و1935.

إنها الفترة بالذات التي وصلت الإيديولوجية الكولونيالية فيها إلى ذروتها، مع لوي برتران والتيار الجزائراني، ولم تكن – قبلها أو بعدها – أكثر وضوحا وصراحة في عنصريتها وفي إرادة الهيمنة، حتى تظن أحيانا أنك تقرأ لكاتب نازي، ألم يعجب برتران بهتلر وكتب عنه ؟ وهذا يفسر إلى حد ما تجنب المصادر الفرنسية التفصيل في الحديث عنها.

ليست هذه الفكرة اكتشافا، بل أشار إليها في 1991 عبد القادر جغلول حين تحدث عن فترة من تاريخ الجزائر الثقافي غير مدروسة بما يكفي *sous-étudiée*، يحددها ما بين 1880 و1930، فترة كان زمن المقاومات الشعبية في أرياف الجزائر وبواديها قد انتهى، ولم يكن زمن الوطنية والنضال السياسي بمطالبه الاستقلالية قد بدأ بعد (Khoudja، 1991، ص 9)، وعلى هذين المحورين يدور الكلام في تاريخ الجزائر السياسي والثقافي، ولا نعرف الكثير عنما بينهما.

ومما أسهم في التعتيم على هذه الفترة التقسيمات المتداولة، بعد غابريال أوديزيو *Gabriel Audisio*، أي بعد الحرب العالمية الثانية، لتطور أدب المستعمرة، إذ «استخدم الكثير منا وبالغوا في استخدام التصنيفات العملية التي تقابل الرواية الهوياتية للمعمرين بأدب الرحالة «الغرائبي»، والآداب الوطنية –التي تلصق بها أحيانا بطاقة النظال الوطني– بالآداب متوسطية أو كونية الإلهام التي كانت تصدر عن مدرسة الجزائر العاصمة (Henry, 2008, p. 11)».

ازدادت هذه التقسيمات صلابة مع بروز الجيل الاحتجاجي (كما يسميهم أحمد منور (أحمد، 2013)) من كتاب الجزائر باللغة الفرنسية، جيل ديب وفرعون وحداد وغيرهم، إلى أن صار المعيار الإثني–العقدي فوق كل اعتبار في تصنيف الكتاب وأعمالهم ومعرفة الآباء الشرعيين للآداب الوطنية، وتوزيع شهادات الوطنية أو الخيانة عليهم. يذكر جون روبير هنري *Jean-Robert Henry* النتائج السلبية لهذه التصنيفات:

أولها إسقاط تصنيفات تنطبق على الحاضر على الماضي، ولو لم يكن لها في بعض الأحيان معنى. مثلما حدث من «تجزير» كتاب فرنسيين أسلموا، مع أن ديني *Dinet* (وهو أشهرهم) عرف دائما كيف يحافظ على أفضل علاقة مع السلطات الاستعمارية» .

والثانية أن فيها تمييزاً اختزاليًّا لأدب المستعمرة بين مؤلفين استعماريين ومؤلفين وطنيين، بين أدب استعماري وأدب وطني، تمييز يؤدي إلى إهمال الفوارق الداخلية الدقيقة بين خصائص هذا أو ذاك وإلى تعميق الحدود الفاصلة بينها والتي ليست في بعض الأحيان واضحة تمام الوضوح.

وأخيرا، إهمال التنوع في العلاقة التي تربط المؤلفين بالصراع الاستعماري والاستخفاف بالدور الذي لعبه الكتاب الموصوفون ب"حسن النية"، من كانوا يحلمون بمصالحة بين المستعمِرين والمستعمَرين و/أو تجاوز الصلة الاستعمارية. بل ولم تؤيد تركيز الانتباه على مواقف وبعض الكتاب ضد الاستعمار وانتقاداتهم له، مواقف وانتقادات متفاوتة في درجة الوعي والحدة. وإهمال تنوع السجلات الخطابية: فخطاب مأساوي عن المصير مسلمي الجزائر ليس مثل خطاب نقدي تجاه العلاقة الاستعمارية (Henry، 2008، ص ص 12–13).

بعد هذا العرض للإشكالات التي وردت في قراءة أدب الفترة المذكورة، مع عدم إنكار فائدتها بل وأنها ضرورية، اقترح هنري «بعض المسالك الخصبة» من أجل قراءة جديدة لهذا الأدب الذي لا غنى عنه كمادة تقدم «الواقع الاستعماري المعيش ومخيال العلاقة الاستعمارية»، وذلك ب «اعتبار مواقع الكتابة، والتناص، وشبكات النشر والتوزيع» (Henry، 2008، ص ص 27–28). مشروع يمكن أن نفيد منه كمدخل لقراءة ذاكرة الجزائر الاستعمارية.

نطرح إذن الإشكالية الرئيسية التالية: كيف كان يصور أدب هذه الفترة كلا من المستعمِر والمستعمَر ؟ وذلك باعتبار العلاقات المعقدة والصراعات الداخلية التي كانت في كل من المجتمعين ؟ والعلاقات والصراعات بينهما ؟ وهو سؤال نحاول الإجابة عليه من خلال عرض نماذج من كتابات الفترة، كتابات فرنسية: لوي برتران *Louis Bertrand* ، وروبير راندو *Robert Randau*، وألبير تروفيموس *Truphémus Albert* وغيرهم، وكتابات جزائرية: محمد ولد الشيخ، وعبد القادر حاج حمو، وشكري خوجة وغيرهم.

الحياة الاجتماعية والثقافية في الجزائر في مطلع القرن العشرين

لم تكن الحياة الاجتماعية والثقافية في الجزائر في الفترة التي حددناها بالبساطة التي نتصورها، تصور أنشأه لدينا التاريخ السياسي «المتمركز حول المقاومة المسلحة للاستعمار التي يعد الأمير عبد القادر رمزها الأول، وحول الصعود القوي للحركة الوطنية الاستقلالية التي أسسها في البداية مصالي الحاج» (Khoudja، 1991، ص 9)، لقد كانت أكثر تنوعا وتعقيدا على أن تختزل في الحرب والمقاومة لأن فترة الاستعمار كانت أطول بكثير من ذلك.

يمكن أن نرصد إيديولوجيّا من جهة المجتمع الاستعماري ثلاثة أنواع من العلاقات التي كانت مصدرا للصراعات الاجتماعية والثقافية في المستعمرة، «العلاقة الاستغلالية مع المجتمع المسلم، وعلاقة التبعية والاستقلالية مع الميتروبول، والعلاقة المتخيلة بالصراعات الطبقية داخل المستعمرة»، ويقابلها في المجتمع المسلم تدهور للحياة المادية قابله ظهور نماذج اجتماعية جديدة: الوظائف الإدارية (طب، محاماة، تعليم، ...)، جمعية العلماء، الأدباء باللغة الفرنسية، ... ولا تخرج هذه العلائق والصراعات عن الإطار الكبير الذي هو الصراع بين مستعمِر ومستعمر.

أيّ قراءة إذن لتراث الفترة لابد أن تستحضر هذا المشهد، وهو مشهد ترسمه لنا النصوص الأدبية، الروائية خاصة، لتلك الفترة، والتي لا بد أن نقرأها دون الفصل بين انتماءات أصحابها بعيد عن التصنيفات الجاهزة والأحكام المسبقة ونفهمها من خلال ربط بعضها بالبعض الآخر، وهذا ما أردنا الإشارة إليه بعبارة الأنا الذي يحكي الآخر، وهي ترجمتنا لعبارة *Je qui*

dit l'Autre التي وردت في مقال الناقد المقارن الفرنسي دانيال هنري باجو *Daniel-Henry Pageaux*، واصفا بها تحليل "الوعي التلفظي" في نص ما، ومعرفا لها بما يلي:

«تتبع تقلبات الكتابة عند الأنا المتلفظ يعني، فيما وراء الدوافع والمقاطع والمواضيع والوجوه والصور التي تحكي الآخر، التعرف في قلب نص ما على كيفية تمفصل المبادئ التنظيمية والتوزيعية (سلسلة الأنا مقابل سلسلة الآخر) قواعد المخيال المنطقية وانحرافاته. فيكشف النص، بصفته مشروعا استقصائيا إلى حد ما، العالم الخيالي الذي أنشأه الأنا، وتلفظ به» (Pageux, 1989) .

وهذا هو شأننا في هذا العرض، والذي سنقابل فيه وفق نموذج اقترحه هنري ولورسوررري *Lorcerie*، نستعين به في البداية لتحديد تيارات الأدب الكولونيالي، في الفترة المحددة آنفا، ثم نقابلها بالنصوص التي كتبها الجزائريون، نموذج يوضحه المخططان التاليان (Lorcerie، 1981):

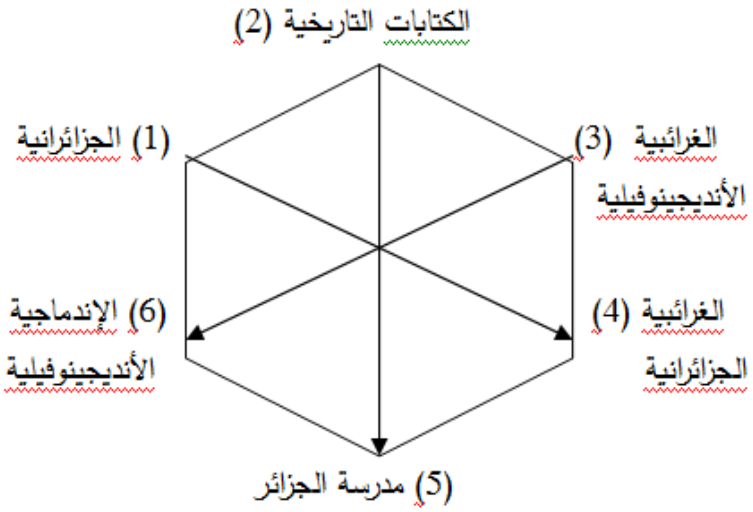

الشكل (1) التيارات الكبرى للأدب الفرنسي في الجزائر والأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية

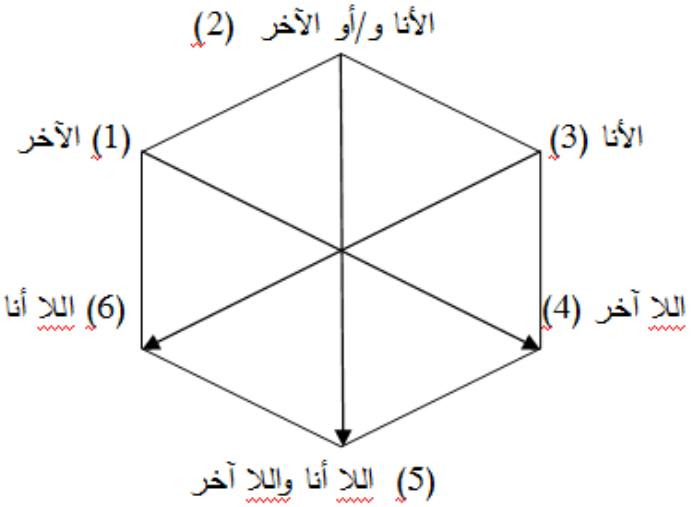

الشكل (2) المحاور التي تمثلها التيارات الأدبية في الجزائر المستعمرة

قراءة في المشهد الأدبي في الفترة ما بين 1900 و1935

الكتابات الفرنسية

يمثل كل قطب من أقطاب الشكل الستة محورا من المحاور الكبرى الأدب الكولونيالي في الجزائر المستعمرة، فالمحور (1) هو الجزائرانية *algérianisme* وهي التيار السياسي ثم الأدبي الثقافي الذي زرع بذرته الأولى لوي برتران الكاتب اللوريني الذي أسس لخرافة لاتينية شمال إفريقيا التي تحولت إلى عقيدة سياسية التف حولها راندو وبوميي وغيرهم، من أعضاء أول جمعية للكتاب الجزائريين (أي من أبناء المجتمع الكولونيالي).

وترتكز الجزائرانية على الآخر من أجل تعريف ما تسميه *العرق الجديد* من سكان المستعمرة «السخاء والفحولة وتمجيد الجسد، أي المتعة، والقوة وجمال الخلقة، تمجيد محله معبد الشاطئ من جهة. ومن جهة أخرى (جهة الفرنسي) الشح والضعف والثقافة والتزهد، إلخ. ولكنه يعرف أيضا بمقابلته بالعربي الذي يجسد، في نظره، الحياة الغرائزية وانعدام الثقافة والجهل والروتين، إلخ. فكان تعريفا بالنفس متناقضا بما فيه الكفاية» (BOURDIEU، 1958، ص 113). وهذا ما نقرأه في رواية «دم الأعراق» *Le sang des races* لبرتران أو «المعمرون» *Les Colons* لروبير راندو.

والمحور (2)، محور الكتابة التاريخية أو الميتا–خطاب التاريخي الذي يذكر مصطلحي الأنا والآخر صراحة، ويطرح وضع عرقين متنازعين يتشاركان نفس الإطار الجغرافي، بحيث يسيطر أحدهما على الآخر. كتابات علماء الاجتماع والباحثين في المجلة الإفريقية مثلا.

أما المحور (3) فيمثله تيار الغرائبية الأنديجينوفيلية (أي محبة الأهالي)*exotisme indigénophile* ، ويرفض ممثلو هذا التيار (إبرهارت *Eberhart* وتارو *Tharaud* ومونتيرلان *Montherlant*) تثمين هووية المستعمِر ويركزون جهودهم في التعبير عن هوية المستعمَر، لكن المفارقة أن أعمالهم لم تكن يوما ضد الكولونيالية، بل غاية ما يقومون به هو إبراز مأساة الآخر وجمال هذه المأساة.

المحور (4) هو لازمة المحور (1)، إذ يرتسم الأنا في هذا الأخير على خلفية العداء الذي يأتي من جهة الأهالي، ويرتسم الأهالي بالمقابل في (4) على أنهم مختلفون ومعادون بالحضور المهيمن للمستعمِر، الروايات الدائرة على هذا المحور يمكن وضفها بالغرائبية الجزائرانية، بمقابل الغرائبية التي يكتبها ميتروبوليتانيون، الروايات القبائلية أو البدوية لفارديناند دوشين *Ferdinand Duchène*، حيث يصبح وصف ما وراء البلد *l'arrière-pays* الذي يسكنه المسلمون مجرد ذريعة لإظهار همجيته وتخلفه.

مع بروز الحركة الوطنية الجزائرية وتصاعد نشاطها، صار لزاما على أوروبيي الجزائر إعادة النظر في علاقات السيطرة والتعايش التي تربط الشركاء في الوضعية الاستعمارية، وتجلى ذلك أدبيا في أعمال رواد مدرسة الجزائر العاصمة *L'Ecole d'Alger*، المحور (5)، مشروع جديد جاء في آخر الفترة التي نتناولها بالقراءة هنا.

ميز مشروع الجزائر الجديدة هذا رفض الإشكالية العرقية، ويركز كتابه حكاياتهم حول مواضيع اجتماعية (الإضراب في رواية «الحركة» *l'Action* لروبليس *Roblès*) أو أخلاقية (المطالبة بالكرامة الإنسانية في «أعالي المدينة» *Les hauteurs de la ville* لروبليس وصعوبة العيش في المجتمع في «الغريب» *L'étranger* لكامي *Camus*)، **الروايات السوداء** بتعبير ديبوي *Dupuy*، روايات الفشل والتراجع التي ترفض مقابلة الأضداد دون التوصل إلى إمكانية التوفيق بينها بغير الموت.

أما المحور (6) والأخير فترتبط به أعمال روائية تصور تدمير هوية الآخر بفعل الإدماج المدرسي، آخر يترشح لمنصب الأنا، بعد أن أفرغ من خصائص آخريته. روايتا «فرحات معلم من الأهالي» *Ferhat, instituteur indigène* لتروفيموس و«حديقة السهول العليا» *Le jardin des hautes plaines* لكاتالا *Cathala*. تنتهي هذه الأخيرة بدخول محمود ميدان السياسة ثم ألقي به في السجن، وهذا بعد أن اجتاز بنجاح امتحان شهادة التعليم C.E.P ووجد نفسه بطالا.

أما قصة فرحات فكانت أكثر مأساوية، في أحداثها وفي نهايتها، فرحات الذي درس في إحدى ابتدائيات الريف عند معلم وزوجته، وتربى في بيتهما وأحب أوديت *Odette* ابنتهما، وشارك في الحرب العالمية الأولى ونال وسام شجاعة، ثم عاد للتدريس في قريته.

ومع أن مفتش التعليم السيد موس *Mus* كان يعلق آمالا كبيرة على فرحات الذي اجتاز *C.E.P* بنجاح أيضا، وقدم لأجله مشروع فتح قسم جديد للتدريس يديره هو، إلا أننا نقرأ في نهاية الرواية نهايته المأساوية تحت عنوان *انتحار أم جريمة*، مات فرحات الذي اندمج ثقافيا ومهنيا، لكن كم كانت خيبة أمله كبيرة لما اختارت أوديت الزواج من تاجر الفلين الثري فيران *Ferrand*، عدو فرحات في الحرب وبعدها.

قبل موته، أرسل فرحات للمفتش موس أوراقا أفرغ فيها ما في قلبه من آلام وأحزان وخيبات أمل، خاصة خيبة الحب الذي ارتبط لديه بخدمة فرنسا التي خدمها من أجل أوديت، فرنسا التي تبنى لغتها (كانت أفضل من الفرنسيين أنفسهم) وثقافتها (بعد أن تخلى عن الصلاة وكان يشرب الخمر ويأكل الخنزير) وخدمها في الجيش وفي المدرسة تكافؤه بأن تحرمه مما أخلص في طلبه منها، أوديت.

كراستان تركهما فرحات للمفتش نقرؤهما في أكثر من ثلاثين صفحة من الرواية (Truphémus، 1935، ص ص 167–200)، يسرد فيهما فرحات مراحل حياته ويصف بدقة شعوره في كل مرحلة، طفولته وشبابه وتكوينه في فرنسا ومشاركته في الحرب ويوميات عمله في المدرسة. حكاية يتفطر لها قلب القارئ ألما، ويظهر من خلالها تصاعد غضب الجزائريين المسلمين الذين خدعوا بحلم الإدماج.

الكتابات الجزائرية باللغة الفرنسية

من هنا يمكننا الانتقال إلى الروايات التي كتبها جزائريون، فقد كان محورها الرئيسي هذا الاندماج وارتباطه الوثيق بقضية الحب والزواج كما في حالة فرحات، وارتباط هذا الأخير باختلاف الدين. وهنا أيضا تمايزت النظرة بين الكتاب إلى الأنا وإلى الآخر، بين أصحاب الحلم الساذج بالأخوة، وأصحاب النظرة الواقعية واستحالة التقارب (ناهيك عن الاندماج) في ظل اختلاف المبادئ والدين خاصة وفي ظل وضعية فيها مستعمِر ومستعمَر.

لقد كان أول من طرق الموضوع روبير راندو، الجزائراني، في رواية عنوانها بالمناسبة الجزائرانيون: الجزائر السعيدة *Algérianistes: l'Algérie heureuse*، وهي رواية مبكرة بالنظر إلى الفترة التي نتحدث عنها وإلى هذا الموضوع، إذ صدرت في 1911، وفي جزائره السعيدة هذه يربي أحد المندمجين مهنيا بنجاح من المسلمين في المجتمع الفرنسي ابنته تربية فرنسية (*éducation roumia*)، فتتمرد عليه وعلى إرادته لتفر مع ضابط فرنسي وترغمه في النهاية على القبول بزواجها منه بمساعدة من أصدقائه الفرنسيين.

«نعم، سيد كاسار، أنا ثائرة ! ضد أبي وضد أبناء بلدي ! يقال لي بالدليل أن الأرض تدور، وأن الناس إخوة، وأن القمر لم يبرح مكانه ليحيي الرسول –عليه الصلاة والسلام– كان أبي فورا جدا لما حصلت على شهاداتي. لم أكن حينها أقل شأنا من زميلاتي الأوروبيات. فجأة ! يفرض علي الحجاب، يحبسني في ملكيته، ويصدمني بخبر تزويجي. فعدت متوحشة من جديد. لماذا ؟ بسبب الدين ! آه ! كم يجعلنا تعساء هذا الدين ؟» (BOURDIEU، 1958، ص ص 179–180).

هذا كلام عائشة بنت أوسرير في رواية راندو، روج هذا النوع من الروايات إلى أن المجتمع الاستعماري وثقافته يفتحان ذراعيهما للجزائريين من المسلمين بشرط أن يتخلوا عن آخريتهم –كما قدمنا– المتمثلة في الإسلام وتعاليمه، فسار عدد منهم في هذا الطريق ليصدموا بواقع جسدته شخصية فرحات وستجسده شخصيات نذكرها فيما يأتي.

ومن الجانب الجزائري نقرأ صورة جميلة لاندماج جزئي، بصورة مختلفة عن ما عرضته الروايات الفرنسية، عند محمد ولد الشيخ في رواية مريم بين النخيل *Myriem, dans les palmes*.

يمكن أن نعتبر هذه الرواية ردا على طرح راندو، المتمثل في استحالة الجمع أو التوافق بين الثقافتين الإسلامية والفرنسية، وأن إحداهما لا بد أن تخضع للأخرى، وبما أن الأولى تضطهد المرأة وتستغبيها والثانية تحرر ذاتها وفكرها، فستخضع الأولى لهذه الأخيرة، تطرح مريم بين النخيل إشكالية الزواج في الصفحات الأولى، وفي حين يتوقف راندو عند حدوث الزواج وفرحة عائشة، يحدثنا ولد الشيخ عن المعاناة التي تأتي بعده، خاصة مع قدوم الأبناء والخلاف في تربيتهم.

افتتحت الرواية بوصف مريم كما يلي :

«ابنة لضابط فرنسي وأم مسلمة، مريم دوبوسي *Debussy*، ورثت هذه الوهرانية الثرية أملاكا واسعة وجميلة في نواعي مسرغين. شغوفة برحلات الطيران والسياحة التي تمارسها رفقة الميكانيكي الذي يعمل لديها دالبري *Dalbret* » (Agha، 2020، ص 21).

وصف جميل لفتاة تعيش حياة أوروبية بجميع المقاييس، ولها أخ سلك طريق أبيه في الالتحاق بالجيش الفرنسي، وهو أمر لم يكن يرضي الأم خديجة، كانت «خديجة تعاني ...» ، ذلك أنها اصطدمت بعد «ارتباطها بالقائد دوبوسي، في لحظة جنون دون التفكير في عواقب اختلافهما في المشاعر، وفي الأذواق، وفي الاعتقادات»، بواقع مرير، خاصة لما صارت «أُما دون أن تكون كذلك، قريبة من أبنائها لكنها بعيدة عنهم» (Agha، 2020، ص ص 22-23).

ذلك أن الضابط لم يكن يسمح لها بالتدخل في شؤونهم، أي في تربيتهم، لأنه كان «يرفض رفضا قاطعا أن يرى زوجته تكلم أبناءها بالعربية أو تعرفهم بتقاليد أجدادها»، حيد دور خديجة في بيتها إلى درجة أنها صارت لا تصلح إلا لقضاء أوقات الفراغ، كان يقولها لها بصراحة وباحتقار. وعندما تنتفض خديجة، التي بقيت محافظة رغم كل شيء على لباسها العربي وملتزمة بتعاليم الإسلام.

صورة الإسلام النمطية، دين التطرف وتقييد الفكر، وهي الصورة التي يريد تفنيدها محمد ولد الشيخ، من خلال شخصية خديجة وابنتها، بل ومن خلال أحداث القصة. ذلك أن مريم تتعطل طائرتها في إحدى الرحلات في نواحي بشار، فتضطر مع مرافقها إلى الهبوط في مكان خال ويأسرها محاربوا إحدى القبائل ويقدموها لأميرهم الذي يعزم على الزواج منها لما رأى جمالها. يجسد أفراد هذه القبيلة بعاداتهم، وممارساتهم، ووحشيتهم التطرف في أشد صوره، بمباركة من المفتي.

تم تحرير الفتاة، ومعها فتاة بربرية جميلة تدعى زهرة، من الأسر بعد تدخل الجيش الفرنسي وبعد جهود بذلها الأخ الضابط ومعلم العربية سي أحمد، هو «أحمد مسعودي، مسلم متعلم ومثقف، يذكرنا بفرحات. يرتدي بأناقة برنوسا من الصوف الأبيض فوق بذلة كالي يلبسها الأهالي من القماش الأسود. شاب وسيم» (Agha، 2020، ص 29). تنتهي القصة بانتصار خديجة، انتصرت بتزويج ابنتها من معلم العربية المسلم المستنير، وابنها من الفتاة البربرية المسلمة زهرة. أما الأب فقد مات منذ زمن في إحدى مهماته.

نهاية مريم بين النخيل تشبه نهايات القصص الخرافية، ولم يكن هذا للأسف حال باقي الجزائريات، أو بالأحرى الأغلبية الساحقة منهن، ففي الجهة الأخرى نجد «زهرة زوجة المنجمي» *Zohra femme du mineur*، زهرة الجميلة التي توفيت في ريعان شبابها متأثرة بالمرض. لكن المعاناة الحقيقية هي تخلي زوجها عنها، بعد أن ضل السبيل وتحول إلى إدمان الخمر والقمار والعلاقات المحرمة مع فتاة إسبانية، كان هذا المجتمع الأوروبي الذي خالطه الملياني (زوج زهرة) سبب انحرافه.

ترك الملياني البيت ثم طلقت منه زهرة، «الكريمة، الطاهرة، المرتبة، التي يصبح اللاشيء في غرفتها جميلا" (Hamou، 2007، ص 235)، وعانت الشابة الأمرين فقر ومرض، ولفظت أنفاسها الأخيرة في غرفتها في مشهد يدمي القلب، وينقل بعده السارد تفاصيل جنازتها، أما الملياني فاتهم بقتل أحد المنجميين الإيطاليين، وقضى مدة في السجن أقسم بعدها على "ان سماء مليانة لن تمطر عليه مجددا" ورحل إلى المغرب.

نفس المعاناة عاشتها زوجة ابراهيم الفحام في رواية لبيك *Lebbeik* لمالك بن نبي، فقد جرى مع إبراهيم الرجل المتدين وابن العائلة العريقة مثل ما جرى مع الملياني، فقد انحرف عن الجادة وصار يعاقر الخمر ويقامر، وطلقت منه زوجته أيضا. اسمها أيضا زهرة صاحبة «الوجه الدافئ والحزين الذي يعبر غالبا عن ألم لا يرجى شفاؤه [...] كانت زهرة تعاني منذ مدة، خاصة بعد وفاة والديّ زوجها بسبب سلوكاته المنحرفة» (Malek، 1947، ص 23).

وهكذا ركز أغلب الكتاب الجزائريين في هذه المرحلة على معاناة المرأة التي سببتها الوضعية الاستعمارية، وانحلال المجتمع الجزائري تحت تأثير سياسات الاستعمار وعادات مجتمعه الغريبة عن الجزائريين المتمسكين بإسلامهم، هذا من جهة. وركزوا من جهة أخرى على معدن هذه المرأة الطيب وخصالها الجميلة وتسترها وتدينها ووفائها للرجل وتعظيمها لشأن البيت والعائلة.

ركز الكتاب من الرجال على عفة المرأة الجزائرية، وكان وصفهم لها لا يتعدى حدود الأدب، حتى لما انحرف ابراهيم والملياني، بقيت الزهرتان وفيتين عفيفتين، وعلى الرغم من تسلط الضابط ديبوسي وتعنته في تربية الأبناء على الطريقة الفرنسية، بقيت خديجة على دينها والتزامها وردت أبناءها إلى هويتها وهوية أجدادها.

كان طرق هذه المواضيع وعيا من الكتاب الجزائريين بأن المرأة كانت الهدف الأول للهجمات الإيديولوجية الاستعمارية، كما بدا ذلك من أعمال راندو وغيره، وكما صرح برتران في أحد مؤلفاته المتأخرة لما رأى امرأت مصرية اعتلت المنصة لتلقي محاضرة : «ظننا للحظة أنها كانت ستخلع حجابها وأن الكافر كان سيرى أخيرا وجهها. لم يدم هذا الوهم طويلا» (Bertrand، 1917، ص 227). كان هذا الإشكال الكبير بالنسبة للمستعمِر، التعامل مع التزام الجزائريين بتعاليم دينهم، فقد غيرت الإدارة الاستعمارية كل القوانين وكل الأنظمة إلا قانون الأحوال الشخصية الذي بقي موافقا للشريعة الإسلامية.

إن الثقافة الفرنسية التي كان لها تأثير إيجابي على عائلة مريم، لأن الأم أعادتها إلى دين الأجداد وعاداتهم وأمكن الجمع بينها وبين الثقافة والمدنية الفرنسية، لكنها عند بن نبي وحاج حمو لم تكن سوى مصدر للانحراف والضياع، ولم يناقش كلاهما مسألة الإندماج، هذه الأخيرة ناقشها بصراحة وعالجها شكري خوجة من خلال عملين روائيين : أولهما ذو طابع اجتماعي يذكرنا بفرحات وهو رواية «مأمون مقدمة مثل أعلى» *Mamoun, l'ébauche d'un idéal*، ورواية أخرى تناولت القضية من وجهة نظر تاريخية وهي «العلج أسير البربر» *Euldj, Captif des barbaresques*.

ينتج بطل الرواية الأولى خطابا فيه إنكار للذات ومحاولة التمثل في الآخر، سواء كان ذلك في العلاقة بالفضاء (إذ قرر مأمون الانتقال إلى الجزائر العاصمة)، أو بنمط العيش والاستهلاك، أو بالثقافة، أو بالعائلة وبالحب.

كان مسار مأمون عبارة عن طريق نحو الفشل والانهيار، بعد أن ظن أبوه أن انتقاله إلى العاصمة سيضمن له ترقية اجتماعية ومهنة محترمة، طبيب أو محام، لكنه «أقصي من الثانوية لأجل خطأ تافه». ومع أنه كوّن «ثقافة قل نظيرها عند الأهالي من أمثاله» (Khoudja، 1991، ص 30)، رفض ترشحه لمناصب عمل مرات عديدة، كشاويش أو كعون في رصيف الميناء، ولم يحصل إلا على منصب سكرتير ثانوي عند رجل أعمال. أما النهاية فكانت أوديسا حانات الجزائر وملاهيها، ثم الموت:

«الموت. وحده كفيل بغسل الدنس عمن أراد اقتحام الممنوع في عالمه وبالغ حين اعتقد أن العالم "الآخر" يمكن أن يتقبله» (Khoudja، 1991، ص 32).

الرواية الثانية، رواية «العلج»، وهي رواية لم يكتب لها خوجة تقديما ونشرها على حسابه الشخصي في الأيام التي كانت فرنسا تتأهب فيها للاحتفال بمئوية الاستيلاء على الجزائر العاصمة، وهو حدث لا يخلو من دلالة. ذلك أن كانت السلطة الاستعمارية تنتظر من هؤلاء الكتاب اعترافا بشرعيتها وتصديقا لإيديولوجيتها ومقابل ذلك تعترف لهم بوضع قانوني كمثقفين بل كفرنسيين بصفة كاملة عندما تدعو الحاجة. إن إعلان عدم وجود الذات الاجتماعية بغية الوصول إلى انصهار فردي في الآخر، هو الصفقة التي لم يقبلها أي كاتب جزائري باللغة الفرنسية. هنا يكمن بلا شك النسيان الذي وقعوا فيه سريعا (القادر، 1974، ص 92).

لقد بدا في رفض الصفقة تردد في الروايات التي ذكرناها سابقا، تردد اختفى تماما في هذه الحكاية التي دارت أحداثها في مدينة الجزائر العثمانية، ووصفها جغلول بأنها نص «كلّه تمرد على الإيديولوجيا الإدماجية التي يرافع ضدها ويبرهن على استحالتها» (Khoudja، 1991، ص 63).

العلج أسير فرنسي اعتنق الإسلام وحرر من الأسر، تزوج من ابنة من كان سيده، وصار من قادة الأسطول واندمج في الظاهر اندماجا كاملا، بل صار ولده مفتيا للمدينة، لكن كلما مر عليه الزمن ازدادت أزمة وعيه وتصارعت في نفسه الهويتان المسيحية والإسلامية، عندما هاجم شارل الخامس الجزائر واجتمع المصلون في الجامع الكبير لصلاة الخوف دخل العلج وركع ركوع النصارى وصلى بصلاتهم وسط الجمع وما أنقذه من أيدي المجتمعين إلا تدخل ابنه المفتي الذي شعر بالعار مما فعله والده: «ما كنت أبدا لأتخلص من عقيدتي المسيحية، تلك التي أومن اليوم بأنها الوحيدة المنيرة والنقية» (Khoudja، 1991، ص 163).

خاتمة

هذا عرض مقتضب للمشهد الأدبي في الفترة الوسطى من التاريخ الاستعماري، فترة الجزائرانيين والإندماجيين في التاريخ الأدبي، ومرحلة ذروة الاستيطان وبداية الوعي والحركة الوطنية الجزائرية في النسخة السياسية لهذا التاريخ، الفترة المنسية في التاريخ التي تجاهلها حتى بنيامين ستورا *Benjamin Stora* وهو المتخصص في تاريخ الجزائر لما قدم مشروع دراسة الذاكرة الاستعمارية الذي كلفه بإنجازه مؤخرا الرئيس الفرنسي.

يحتاج هذا المشهد فيما نرى إلى دراسات أكثر عمقا واستقصاء للأعمال الأدبية، وذلك من أجل تحديد المساحة التي احتلها الاستعمار في حياتنا وفي ذاكرتنا، على مستوى الحقيقة وعلى مستوى الخيال. وهذه مرحلة أساسية في عملية الديكولونيالية، أي التخلص من آثار الاستعمار، العملية التي بدأت بعد الاستقلال لكنها لم تنته بعد فظل الماضي لا يزال ممتدا على حاضرنا في مجالات متعددة، الثقافية خاصة. مسائل الذاكرة إذن لا بد من حسمها ودراستها من مختلف جوانبها، والنصوص الأدبية التي أوردنا جانبا منها تعتبر وثيقة ذات قيمة توثيقية كبيرة، تنقل لنا الأحداث مع المشاعر والانطباعات والآمال والآلام التي رافقتها ونتجت عنها.

لمحة حول الكاتب:

خالد عثمانين، أستاذ محاضر أ بجامعة يحيى فارس –المدية–، متحصل على شهادة ليسانس لغة فرنسية، وماجستير ودكتوراه تخصص أدب المقارن. يدرس بالتوازي في قسمي اللغة العربية والفرنسية، تخصص الأدب المقارن وما يقترن به من نقد ثقافي وآداب عالمية وأدب الجزائري مكتوب بالفرنسية وترجمة. وله مقالات وترجمات ومشاركات وطنية ودولية في ذات المواضيع.

رقم الأوركيد: 0000-0003-4840-2992

التمويل: هذا البحث غير ممول.

شكر وتقدير: لا ينطبق.

تضارب المصالح: يعلن المؤلفون عدم وجود أي تضارب في المصالح.

الأصالة: هذه البحث عمل أصلي.

بيان الذكاء الاصطناعي: لم يتم استخدام الذكاء الاصطناعي أو التقنيات المدعومة بالذكاء الاصطناعي

المراجع

أحمد ,م .(2013) .أزمة الهوية في الرواية الجزائرية باللغة الفرنسية .الجزائر: دار الساحل.

القادر ,ج .ع .(1974) .الاستعمار والصراعات الثقافية في الجزائر، (تر: س .قسطون)، بيروت: دار الحداثة.

Agha, M. O. (2020). *Myriem dans les palmes.* Tiaret: Youtoubia.

Bennabi, M. (1947). *Lebbeik, pèlerinage de pauvres.* Alger, En Nahdha.

Bertrand, L. (1917). *Le sens de l'ennemi.* Paris: Arthème Fayard et Cie.

Bourdieu, P. (1958). Sociologie de l'Algérie (éd. coll Que ssais-je). Vandome: PUF.

Pageux, D. H. (1989). De l'imagerie culturelle à l'imaginaire, محرر Brunel, P. في Précis de littérature comparée. Paris: P.U.F. ص 45-62.

Hamou, A. H. (2007). *Zohra*. Oran: Al Gharb.

Henry, J.-R. (2008). A quelles conditions la "littérature coloniale" produit-elle un effet de connaissance sur l'Algérie musulmane. *Cahiers du SIELEC* (5), p. 11.

Khoudja, C. (1991). *Euldj Captif des barbaresques*, مقدمة: ع. جغلول. Paris: Sindbad.

Lorcerie, F. Henry J. R. (1981). Quelques remarques sur le roman colonial. *Cahiers de littérature Générale et Comparée*, (5), p. 114.

Truphémus, A. (1935). *Ferhat : instituteur indigène.* Alger: Edmond Esquirol.

الاستشهاد بالمقال

عثمانين، خالد.(2025) الأنا الذي يحكي الآخر، بين الأدب الكولونيالي والأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية. *مجلة أطراس*، *6*(2)، 533-544